الدكتور صروف والادب

ينشأ بعض الناس على استعداد متساوٍ للعلم والادب تبينهُ المناسبات وترجحهُ ضرورات النشأة الاولى ، فاذا صادف صاحب ذلك الاستعداد في مبدأ حياتهِ ما يميل بهِ الى ناحية العلم خرج عالماً يستفيد من ميولهِ الادبية صقلاً في العبارة وافتناناً في الذوق والتخيل أو تجني عليهِ تلك الميول فتقعد بهِ في منتصف الطريق بين شأو العالم وشأو الاديب فلا يبلغ النهاية القصوى في مطلب من هذين المطلبين . واذا صادفهُ ما يميل بهِ الى ناحية الادب خرج اديباً يستفيد من ميولهِ العلمية قصداً في التعبير وضبطاً في التفكير واتقاناً في التقسيم والترتيب او تجني عليهِ تلك الميول ايضاً فتشلّ خيالهُ وتقف معين ذوقهِ فلا هو الى التحقيق الذي يبتغى من العلم ولا هو الى الجمال الذي يبتغى من الادب

هل كان الدكتور صروف من اصحاب هذا الاستعداد الشائع بين الملكات العلمية والملكات الادبية؟ او هل كان عالماً بالمصادفة لانهُ لم يكن اديباً بالمصادفة ؟ ان الجواب عن هذا السؤال لا يلقي بالمسئول في حيرة ولا تردد ، فانك تستطيع ان تجيب عنهُ بالنفي وانت آمن كل الامن من السهو او الخطإ . فانما نشأ الدكتور صروف عالماً لانهُ طبع على ملكات العالم الامين لفكرهِ الحريص على حقيقتهِ ، وانما أفاد الادب فائدتهُ النفيسة من جانب القصد والتحقيق لان الادب في ذلك الزمان كان احوج شيء الى قصد العبارة وتحقيق المعنى ، وكان — ولم يزل في اكثر فروعهِ — كلاماً لا مغزى لهُ ولا روح فيهِ ولا غاية لهُ وراء الالفاظ المرصوفة والجمل المحفوظة والتزويق الذي لا يرضاهُ ذوق الجنان ولا ذوق التمحيص والتدقيق

تقرأ انشاء ما كان يكتبهُ «المنشئ البليغ» في العهد الذي بدأ فيهِ صروف حياتهُ الكتابية فلا تخلى ان تجدهُ معرضاً للزهو بكثرة المرادف والتكرار والاسجاع والفواصل او مرضاً للغلط في النحو والصرف والركاكة في المفردات والتراكيب فهو على أحسنهِ منظومة كالها عقود الجمّان تجمع من الخمار والنصارى ... ومجاراة الخلاء من الدقيق والجوهر ، وهو فيها دون ذلك ... ولا زهو او لا اصطناع ... وهذا كل الادب الذي ...

الذي يعرفهُ عندنا الناس لا يزالون يُذكّرون بالقاب الكتاب والبلغاء ويحسبون بيننا اذا حسب دعاة الفكر والثقافة :

فما برح بعض « الادباء » في الشرق العربي يطلبون من الادب كل شرط الاّ شرط القصد و« المناسبة لمقتضى الحال »، ويظنون ان الاديب اذا اجاد التنميق والترصيع ودس في كتابته زهرة هنا ودمعة هناك وتجاً في الحاشية ووجنة او عيناً او غديرة شعر او ابتسامة ثغر في الطوايا .... فلا عليهِ بعد ذلك ان يجيء كلامهُ مطابقاً للغرض او بعيداً منهُ يُمثّل النقيض من النقيض، ولا احد يلومهُ على الكذب في الوصف والمخالفة للواقع . مذ كانوا يطلبون من الصورة اللون والورق والاطار ولا يطلبون الشبه الذي هو الصورة كلها في الحقيقة او هو الشيء الذي من اجلهِ تصنع الاصباغ والاوراق والاطر .. !

ونعمت القناعة هذه لولا انها افلاس الفكر وهم يقولون ان القناعة كنز لا يفنى !

لقيني اديب من هؤلاء الادباء فاظهر اعجابهُ ببيت من الشعر رثى بهِ احد الشعراء زعيماً قضى في نحو السبعين ووصف رفاته بانهُ « مثل ريحان الضحى » . فقلت لهُ : او لا ترى ان هذا الرثاء ليس مما يليق بالمرثي ولا يحسن ان يقال الاّ في بنت غضيرة في ريعان الشباب ؟ قال : أجل ، ولكن ليست الصياغة جميلة .. ؟ قلت هذا كاهدائك ثوب القتاة الى الشيخ الجليل ثم قولك اذا اعترض عليك معترض « نعم ! ولكن الثوب من حرير » واقسم اني ما اقتصت ذلك « الاديب » ولا تركتهُ الاّ على ذوقهِ الذي استحب ذلك الرثاء

فمن شاء ان يعرف كيف كان الادب في العهد الذي ظهر فيهِ المقتطف فلينزل عن هذه الدرجة بمقدار خمسين سنة وليقس على جهالة هذا الفريق من قراء الادب تلك الجهالة المطبقة التي كانت فاشية يومئذٍ بين جميع الفرق والاديان . فاذا استطاع ان يستجمعها في خياله فقد استطاع ان يعرف فضل صاحب القلم « المقاصد » والعبارة القويمة والمعنى المحكم بين ان الناس لم يعتبروا من الادب في حينهم الاّ الموزون والخالي والخواء من كل معنى يستطيبه الذوق او يسلّم بهِ الفكر السليم .

لقد كان المقتطف رسالة صروف في عالم الادب وكان هو حاجة ذلك العصر من الاصلاح في الكتابة والثقافة . واكبر بهِ من رسالة وابلغ بهِ من حاجة . فانك اذا

علمت السامة ان يعي شيئاً يقولهُ وأن يقول ما يعنيهِ فقد خلقت لهُ فكراً او ارسلت فكرهُ المعطل من سباتهِ ، وقد نفضت عن ذهنه آفة الجمود فاطلقتهُ من حجر وقوته من عوج وهديتهُ من ضلالة . وليست هذه بالرسالة القليلة من اديب منقطع لفنهِ متوفر على اصلاحهِ بل من العالم الذي لهُ رسالات اخرى ينقطع لها ويتوفر عليها

كان صروف مطبوعاً على القصد والتحقيق لانهُ عالم يقول ما يعلم ويلتزم ما يفهم. ولذا كان الادب ممنوعاً بالخلط والضلالة فقصد السماء هو خير ما يرام لهُ وهو طبهُ الذي يأتيهِ من غير داره اذا كانت دارهُ مقفرة من دوائهِ

دخلت على العالم الفقيد يوماً فالفيته مشغولا بالبحث عن كلمة « شهية » يقول انهُ لا يعرفها في لغة العرب بمعنى قابلية الطعام ويحرص على ان يستوثق من معناها قبل ان يبت في استعمالها . وحادثتهُ مرة اخرى في اسلوب اللورد كرومر فقال انهُ يعجب لذلك السياسي الذي لا يزيد في كلامهِ ولا ينقص . فاذا كانت معلوماتهُ واحصاءاته تذهب بهِ الى هنا (واشار الدكتور الى موضع على المائدة) لم يذهب هو الى هناك (واشار الى موضع آخر جدّ قريب من الاول) فهذه امانة في السياسة وامانة في العبارة تدلان على قدرة ادبية وذهن مستقيم

بهذه الامانة القادرة بدأ الدكتور حياته الكتابية فكان منذ خمسين سنة وبف يكتب بالاسلوب الذي يجري عليهِ الكتاب المجددون في هذه الايام . فأنت تقرأ فصولهُ الاولى في المقتطف وفصولهُ الاخيرة فيهِ فلا ترى بينهما فرقاً في العناية بالصدق والتحري للاصابة ولا تحسُّ الرقي بعد الرقي الا فيما استزادهُ الفقيد من تفردات اللغة ومرانة على التحبير وتوسع في الاطلاع . وماذا نقول في فضل كاتب يجد اكبر من انهُ سبق المجددين الى هذه المزية بسر كامل ؟ وانهُ كان مجدداً في اختيار الفاظهِ وآرائهِ قبل ان نشرف جيلنا هذا بالدعوة الى التجديد ؟

على ان صروفاً شارك في الادب بغير القصد والثقة التي حفظ شعراً كثيراً كان يضعهُ احسن الوضع في اماكن الاستشهاد من مقالاتهِ الادبية ، ونظم شعراً كثيراً ما نظم انشاء في الحكمة والوجود . ويعني بشعر ابي العلاء في الليل نظمها قبل عشرين سنة فكان خيراً من كثير مما يؤثر عن ابي العلاء في ذلك الحين وفيها يقول :

ابا مصر ومصدر نعمتيها لقد شاخ الزمان وانت كهلُ
بنى لك آل فرعون صروحاً عبدت بها، وانت لذاك اهل
فما نفس رأت نفسٌ غزارا وخصباً لا يقوم لديه مَحْلُ
وكان الشكر مرمى ناظريها وربُّ الكون لم يدركهُ عقل
بمشركة اذا شكرت صنيعا عن الادراك صانعه يُجلُّ
فان الفضل يعرفهُ ذووهُ وفضل النيل لا يعلوهُ فضل

ولهُ ابيات نظمها في سر الحياة عندما بلغ الثانية والسبعين يقول فيها:

سبعون حولا لقد مرت وما وجدت نفسي مقراً لها في العالم الفاني

. . . . . .

فرضان اما فناء والبناء لهُ لغوٌ، واما بقاء شاءهُ الباني
اما واجسامنا ليست سوى صور مشكلات باشكال والوان
كهارب حركتها النفس فانتظمت في شكل مستودع للنفس جثماني
حتى اذا تم في الدنيا تطورها طارت الى منزل في الكون روحاني
وللتطور احكام مقررة والنفس والجسم في الاحكام سيان
لا بد للعلم من يوم يفوز بما يبيّن الحقُّ فيه خير تبيان

فهذه الابيات وامثالها من نظم العالم الفقيد ابلغ واصدق من اشعار كثيرة حفظت لنا اسماء فلاسفة وحكماء لم نعرف لهم اثراً غيرها ولا سمعنا بهم الا لانهم قائلوها، فلو لم يكن صروف عالماً يذكر بمقامه الرفيع في العلم لكان في شعره بغية للذكر والرواية، ولو لم يعلمنا بقصده وتحريه

وتراجعه سهماً راجحاً لهُ بين سهوم الادباء والمشاركين في الآداب

فلتكن زهرة الادب منظومة بين اجمل الازهار التي يزدان بها اكليلنا حين نتقدم به راكعين الى ذلك الضريح، ولتبارك عرائس البلاغة عالماً رفع لها قربان العلم فكان أجدى لها من قرابين عبادها الغافلين، وكشفها بنوره فكان ابين عن جمالها من دخان لا تبين فيه نار ولا نور

عباس محمود العقاد